

التحرير والتنوير

وحكاية طعنهم في النبي A بصيغة قصر الموصوف على الصفة فجعلوه لا صفة له إلا الافتراء وهو قصر إضافي أي لست بمرسل من الله . وهذا من مجازاتهم وسرعتهم في الحكم الجائر فلم يقتصروا على أن تبديله افتراء بل جعلوا الرسول مقصورا على كونه مفتريا لإفادة أن القرآن الوارد مقصور على كونه افتراء .

المعنى في الكذب فساوى اختلافه أي الخبر اختراع على وغلب الاختراع : الافتراء وأصل A E ولذلك قد يطلق وحده كما هنا وقد يطلق مقترفا بالكذب كقوله الآتي (إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون) إرجاعا به إلى أصل الاختراع فيجعل له مفعول هو آيل إلى معناه فصار في معنى المفعول المطلق . وقد تقدم عند قوله تعالى (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب) في سورة العقود .

و (بل) للإضراب الإبطالي على كلامهم وهو من طريقة النقص الإجمالي في علم المناظرة . وضمير (أكثرهم) للذين قالوا إنما أنت مفتر أي ليس كما قالوا ولكن أكثر القائلين ذلك لا يعلمون أي لا يفهمون وضع الكلام مواضعه وحمله محامله .

وفهم من الحكم على أكثرهم بعدم العلم أن قليلا منهم يعلمون أن ذلك ليس افتراء ولكنهم يقولون ذلك تلبيسا وبهتاننا ولا يعلمون أن التنزيل من عند الله لا ينافي إبطال بعض الأحكام إذا اختلفت المصالح أو روعي الرفق .

ويجوز حمل لفظ أكثر على إرادة جميعهم كما تقدم في هذه السورة . (قل نزل به روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين [102]) جواب عن قولهم (إنما أنت مفتر) فلذلك فصل فعل (قل) لوقوعه في المحاورة أي قل لهم : لست بمفتر ولا القرآن بافتراء بل نزل به روح القدس من الله . وفي أمره بأن يقول لهم ذلك شد لعزمه لكيلا يكون تجاوزهم الحد في البهتان صارفا إياه عن محاورتهم .

فيعد أن أبطال الله دعواهم عليه أنه مفتر بطريقة النقص أمر رسوله أن يبين لهم ماهية القرآن . وهذه نكتة الالتفات في قوله تعالى (من ربك) الجاري على خلاف مقتضى ظاهر حكاية المقول المأمور بأن يقوله لأن مقتضى الظاهر أن يقول : من ربي فوق الالتفات إلى الخطاب تأنيسا للنبي A بزيادة توغل الكلام معه في طريقة الخطاب .

واختير اسم الرب لما فيه من معنى العناية والتدبير . وروح القدس : جبريل . وتقدم عند قوله تعالى (وأيدناه بروح القدس) في سورة البقرة . والروح : الملك قال تعالى (فأرسلنا إليها روحنا) أي ملكا من ملائكتنا .

والقدس : الطهر . وهو هنا مراد به معنياه الحقيقي والمجازي الذي هو الفضل وجلالة القدر .

وإضافة الروح إلى القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة كقولهم : حاتم الجود . وزيد الخير . والمراد : حاتم الجواد . وزيد الخير . فالمعنى : الملك المقدس .

والباء في (بالحق) للملابسة وهي ظرف مستقر في موضع الحال من الضمير المنصوب في (نزله) مثل (تنبت بالدهن) أي ملابساً للحق لا شائبة للباطل فيه .

وذكرت علة من علل إنزال القرآن على الوصف المذكور أي تبديل آية مكان آية بأن في ذلك تثبيتاً للذين آمنوا إذ يفهمون محمل كل آية ويهتدون بذلك وتكون آيات البشـرى بشارـة لهم وآيات الإنذار محمولة على أهل الكفر .

ففي قوله تعالى (نزله روح القدس من ربك) إبطال لقولهم (إنما أنت مفتر) وفي قوله تعالى (بالحق) إيقاظ للناس بأن ينظروا في حكمة اختلاف أغراضه وأنها حق .

وفي التعليل بحكمة التثبيت والهدى والبشـرى بيان لرسوخ إيمان المؤمنين وسداد آرائهم في فهم الكلام السامي وأنه تثبيت لقلوبهم بصحة اليقين وهدى وبشـرى لهم .

وفي تعلق الموصول وصلته بفعل التثبيت إيماء إلى أن حصول ذلك لهم بسبب إيمانهم فيفيد تعريضاً بأن غير المؤمنين تقتصر مداركهم عن إدراك ذلك الحق فيختلط عليهم الفهم ويزدادون كفراً ويضلون ويكون نذارة لهم .

والمراد بالمسلمين الذين آمنوا فكان مقتضى الظاهر أن يقال : وهدى وبشـرى لهم فعدل إلى الإظهار لزيادة مدحهم بوصف آخر شريف .

وقوله تعالى (هدى وبشـرى) عطف على الجار والمجرور من قوله (ليثبت) فيكون (هدى وبشـرى) مصدرين في محل نصب على المفعول لأجله لأن قوله (ليثبت) وإن كان مجرور اللفظ باللام إذ لا يسوغ نصبه على المفعول لأجله لأنه ليس مصدراً صريحاً